

الأبعاد الحجاجية للصورة التمثيلية في الحديث النبوي الشريف the argumentative dimensions of the comparative figure in the Hadith

تاريخ الإرسال: 2020-03-16 تاريخ القبول: 2021-05-18

فايزة بوراس، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، fbouras92@yahoo.com

الملخص

يعالج هذا المقال موضوع الأبعاد الحجاجية للصورة التمثيلية في الحديث النبوي الشريف، الذي يُعدُّ مصدراً من مصادر التشريع، ومنهجاً قوياً هدفه الأساس هو التغيير والإصلاح، ممّا يستدعي توظيف الأدوات الحجاجية، لاسيما البلاغية البيانية، من قبيل الصور كالتشبيه والاستعارة والكنابة، والتي من شأنها أن تحمل المخاطب على الاقتناع، لما تدخّره من طاقات حجاجية هائلة. وقد تعدّدت صور البيان في حديثه صلى الله عليه وسلم بتعدّد المواقف التخاطبية، ولسنا نقف في هذا المقام على لغة أو بيان عاديّين، وإنّما هي لغة مستحكمة مُحاطة بأسرار الإجابة والاستيفاء، كانت الصورة التشبيهية التمثيلية فيها من أنجع السبل الإقناعية بتجاوزها زُخرف القول إلى حُجّيته، فالحديث النبوي مُرتبط بغايات خطابية هي الإقناع، وأخرى دعوية أُسمى هي التبليغ.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الصورة، التمثيل، الخطاب النبوي، الإقناع.

Résumé

Cet article traite le thème du potentiel argumentatif de la figure de comparaison dans le Hadith, lequel est considéré tant comme source de législation que comme procédé dont le principal objectif est la réforme. Cela requerrait l'emploi de mécanismes argumentatifs, notamment rhétoriques telles que la comparaison, la métaphore et la métonymie pour convaincre le destinataire de par leur force argumentative. Les figures de style foisonnent dans le Hadith en raison de la multiplicité des postures conversationnelles.

Nous ne sommes donc pas en présence d'un langage ou d'un style ordinaires mais d'une langue performante visant la compétence communicative et son exhaustivité. Aussi, la comparaison est le procédé persuasif le plus efficace en cela qu'il dépasse les fioritures du langage pour sa force de conviction. Le Hadith prophétique est lié à des fins discursives dont la persuasion et d'autres missions bien suprêmes dont l'information.

Mots-clés : L'argumentation, La figure, La comparaison, Discours prophétique, La persuasion.

Abstract

This article discusses the theme of the argumentative dimensions of the comparative figure in the Hadith, which is considered a source of legislation and a well-organized method whose main objective is change and reform. It requires the use of argumentative mechanisms, including rhetoric such as comparison, metaphor and metonymy which can convince the recipient because they contain enormous argumentative energies. So, there were many figures of style in the Prophet's Hadith due to the multiplicity of conversational positions. Hence, we are not in front of an ordinary language or figure of style but a strong language surrounding the secrets of competence and comprehensiveness, the comparison of which is one of the most effective persuasive procedures where it has gone a adorned speech to his argument. The prophetic Hadith is related to discursive purposes like persuasion and other very supreme missionaries which is notification.

Keywords: Arguments, Picture, Image, Acting, Prophetic speech, Persuasion.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

تتضح أهمية هذا العمل من موضوعه الموسوم بـ الأبعاد الحجاجية للضرورة التمثيلية في الحديث النبوي الشريف، فالبلاغة النبوية تستدعي البحث والتنقيب عن كنوزها اللغوية والفكرية والبلاغية، ولا عجب، لأنه صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب، أوتي جوامع الكلم وتجلي ذلك في العربية بخصائصها وأسرارها، وقد كان أثر هذه البلاغة العرة واضحا على سائر كلام البشر، تماما كما كان أثر الأسلوب القرآني والتأييد الرباني واضحا على البلاغة المحمدية، التي مدت فروعها في الآفاق، وثبت أصلها، وعلا شأنها، فالتبني صلى الله عليه وسلم قد خاطب في الأمة العقل والوجدان، فبلغ في التفوس مبلغا لم يبلغه أحد من أرباب البلاغة، وذلك لأسباب واعتبارات اجتمعت فيه وتفرقت في غيره، "أما اللغة فهي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة، والمنصرف معها بالإحاطة والاستيعاب، وأما البيان فبيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم مذهبا، وأبلغهم من الذكاء والإلهاء، وأما الحكمة فهي حكمة النبوة، وتبصير الوحي، وتأديب الله، وأمر في الإنسان من فوق الإنسانية" (الرافعي، د س ن، ص: 357) فهو المؤيد بالحجة الراسخة المحفوظة.

إنّ الأسلوب النبوي علا شأنه قد أتى مليئا بشيئ الصور البلاغية التي تجاوزت زُحُف القول إلى وظائف تداولية يفرضها السياق التواصلي، فقد وظف النبي صلى الله عليه وسلم الصورة بشكل متميز يجعل منها آية من آيات الإقناع، ووسيلة من وسائل الإيضاح، لتقريب المعاني من الأفهام. وكان بذلك التشبيه أحد أبرز هذه الوسائل وأجداها.

لقد كان حضور الصور التشبيهية في الحديث النبوي قويا تماما مثلما كان له ذات الحضور في استعمالات العرب، وفي القرآن الكريم، حيث كان للنبي صلى الله عليه وسلم أنوع مشارب التمثيل في أحاديثه بما له من حكمة وإحاطة باللغة، فاستمد من المستأنس المألوف جُلَّ تمثيلاته، وكان للبيئة العربية الحضور الأوفر في عقد الصلّات بين طرفي التشبيه أو الصورة عموما، لما في ذلك من خدمة للمعاني التي يسعى إلى ترسيخها وتثبيتها.

كان صلى الله عليه وسلم يؤثر التعبير عن المجرد بالصور الحسية، المستمدة من واقع مخاطبيه، وقد وافق نحوه الوضوح جمال التصوير والإيحاء، كما اعتمد صلى الله

عليه وسلم على الصور البيانية ذات البعد الاستدلالي الحجاجي، الذي يدفع إلى استنطاق كوامنها، واكتشاف المضمّر غير المُصرّح به في ظاهر الخطاب، ممّا ساهم في مدّ جسور التّواصل بينه وبين أمته فكيف بإمكان الباحث في هذا الإرث النبوي أن يستدلّ إجرائيا على أن للتمثيل في الحديث النبوي أبعادا حجاجية من شأنها أن تمهّد سُبُل الإقناع؟ كيف استطاع النبي صلى الله عليه وسلم من خلال الصورة التمثيلية توجيه السامع نحو المعاني المقصودة لضمان اقتناعه؟

إنّ الحجاج في اللغة مأخوذ من المادة اللغوية (حجج) والتي تعني الدليل والبرهان، يقول ابن منظور: "حاججته وأحاجه حجاجاً ومحاجّةً حتّى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها.. وجمع الحجّة: حجج وحجاج. وحاجه محاجّة وحجاجاً: نازعه الحجّة... واحتج بالشئ: اتّخذ حجّة... والحجّة الدليل والبرهان" (ابن منظور، ص: 779)

أما في الاصطلاح فيعرف الحجاج بأنه "فعالية تداولية، فهو تداولي لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وهو أيضا جدلي لأنّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنى البرهانية الضيقة، إذ تُبنى الانتقالات فيه على صور مُجمّعة على مضامينها أيما اجتماع، وأن يُطوى في هذه الانتقالات الكثير من المقدمات والكثير من النتائج.." (طه عبد الرحمن، 2000، ص: 65)، فهو بذلك قائم على المواجهة الخطائية، البعيدة عن العنف والإكراه، بوصفه منطوقا موجها للغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها..." (طه عبد الرحمن، 1997، ص: 226)

يعدّ الخطاب النبوي خطابا حجاجيا هدّفت النبي صلى الله عليه وسلم من خلاله إلى تغيير جملة من المعتقدات الفاسدة التي سادت آن بعثته صلى الله عليه وسلم، وقد عمل على وصل الأدوات المنتقاة بما يألفه المخاطب، سواء كان ذلك من جانب اللغة في ألفاظها وتركيبها، أم في جانب الصورة ونسجها، وقد ذكر الحصري (453 هـ) قولاً جميلاً في حديثه عن بيانه ومنطقه صلى الله عليه وسلم حيث قال: "هو التّهاية في البيان، والغاية في البرهان، المشتمل على جوامع الكلم، وبدائع الحكم.. وليس بعض كلامه بأولى من بعض بالاختيار ولا أحقّ بالتقديم والإيثار" (الحصري أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني، 2001، ص: 51)، وإنّ ذلك للائق بمقامه الكريم الذي جعله الله بحكمته خاتم الأنبياء، ومتمم رسالات ربه، وقد جاء في الأثر وصف له ولحال الأنبياء قبله فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «متلي

وقد وردت في الحديث الشريف ألفاظ من هذا الجذر اللغوي (صور) من قبيل (فنسك وليف، 1955م، ص: 338-340): الصورة، المصورون، التصاوير، الصور وغيرها، ومن بين هذه الأحاديث ما رواه سهل بن سعد الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليدخلن من أمتي سبعون ألفاً -أو سبعمائة ألف- لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر" (البخاري، الصحيح، تح: مصطفى البغا، ج: 3/ص: 1186).

ثانياً: الصورة في اصطلاح الأدباء والتقاد

يختلف حدّها الاصطلاحي تبعاً للرؤية الفئتيّة والعصر، والاتجاهات والمدارس، وما يطرأ على المفاهيم التقديّة من تغيرات، وكذلك من اضطراب المنهج والنهل من الثقافات الغربيّة لاسيما فيما يتعلّق بدراسة أنماطها وخصائصها "فبعض الدارسين يتجاوز الزمان ليقتصر جمال الصورة على معطيات البيان العربي القديم، وبعضهم يتجاوز الزمان ليقتصر جمالها على الثقافة الغربيّة الرّمزيّة والتفسيريّة والبلاغيّة، وبعضهم يجمع بين هذين الرّصدين في لقاح ليتشكّل وليد تامّ الخلق أو مشوّه الخلق منقّر القسمات" (أحمد ياسوف، 2006م، ص: 89)

وتبعاً للمعنى اللغوي فقد نعدّ الصورة طريقة تقديم الفكرة الكلّيّة في قالب شعريّ جماليّ، يعيد تركيب الموجودات بطريقة تجعل من المعاني أنفذ إلى عوالم النفس، وأكثر تأثيراً وقبولاً، يقول أحمد الشّايب: "إنّ الصورة لها معنيان: أحدهما ما يقابل المادّة الأدبيّة، ويظهر في الخيال والعبارة، والثّاني ما يقابل الأسلوب ويتحقّق بالوحدة، وهي تقوم على الكمال والتأليف والتناسب، أمّا الأسلوب فمقاييسه العامّة ثلاثة: الوضوح والقوّة والجمال، وهذه المقاييس أو الصّفات تتأثّر بأمرين؛ الموضوع والأديب." (أحمد الشّايب، ص: 259، ويُنظر أيضاً: ص: 242-251)، فمن خلال العلاقات اللغويّة والصّور البيانيّة وجملة انتقاءات الأديب يبرز الجمال الفنيّ للصورة، أمّا عن تأثّر الصورة بالأديب والموضوع، فإنّ ذلك مرهون بمدى أهميّة الموضوع وعمقه، وبشخصيّة الأديب المبدعة الفريدة التي تجعله يحوز مقاييس الوضوح والقوّة والجمال، وإنّ ذلك لجليّ في الحديث النبويّ والذي أحيط فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرعاية الرّبانيّة، وأوتي فيه أسرار البلاغة، ليبلّغ موضوعاً رفيعاً يتصل بغايات دينيّة سامية، تقتفي مآرب التأثير والإقناع لاسيما من خلال الصورة

ومثّل الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بُنياناً فأحسّته وأجمّله إلّا موضع لبنةٍ من زاويةٍ من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاًّ وضعت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيّين» (الشّقيطيّ محمّد حبيب الله، ج: 2/ص: 397).

ولأنّ المقام لا يسع للبسط في سوق كلّ ما أثر عن النبيّ من الأحاديث المشتملة على الصّور التمثيليّة، ننتقي فيها يأتي بعض التّماذج قصد تحليلها وسبر أغوارها.

1. مفهوم الصورة وأهمّيّتها

يعدّ القول المجازيّ أهمّ ما يميّز الكلام العربي، لا سيما ما يتعلّق بالصّور البيانيّة التي تعطي المعاني حُللاً جديدة تفتح آفاق التلقّي والتأويل وتضمن للخطابات التّمكن. فما مفهوم الصورة؟ وما أهمّيّتها في الأدب والتّقد؟

أولاً: الصورة في الدلالة اللغويّة

مشتمّة من الفعل (صوّر)، بمعنى: "جعل للشّيء صوراً مجسّمة، والصّورة التّمثال، وجمعها صوّر، مثل: عُرف، وتصوّرت الشّيء ممثّلت صورته، وشكّلته في الذّهن فنصوّر، وقد تُطلق الصّورة ويراد بها الصّفة، كقولهم صورة الأمر كذا أي: صفته" (أحمد بن محمّد بن عليّ المقرئ الفيومي، ص: 173)

يقول ابن منظور في شرحها: "في أسماء الله تعالى: المصوّر: وهو الذي صوّر جميع الموجودات وربّتها، فأعطى كلّ شيء منها صورة خاصّة وهيئة مفردة يتميّز بها، على اختلافها وكثرتها" (لسان العرب، ص: 2523)

وقد أتى عن الرّاعب الأصفهاني (ت 502 هـ) في تعريفها: "الصّورة ما يُنتقشُ به الأعيان ويتميّزُ بها غيرها، وذلك ضربان: أحدهما محسوس يُدرّكه الخاصّة والعامّة، بل يُدرّكه الإنسان وكثير من الحيوان، كصورة الإنسان.. بالمعاينة، والثّاني معقول يُدرّكه الخاصّة دون العامّة، كالصّورة التي اختصّ الإنسان من العقل، والرّويّة، والمعاني التي حُصّ بها شيء بشيء" (أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّعب الأصفهاني، دس ن، ص: 289).

ويقول الزبيدي: "الصّورة، بالضمّ: الشّكل، والهيئة والحقيقة والصفة" ونقل أنّ الصّورة هي ما يتميّز بها الإنسان عن غيره، "وذلك ضربان: ضرب محسوس يُدرّكه الخاصّة والعامّة.. والثّاني: معقول يُدرّكه الخاصّة دون العامّة، كالصّورة التي اختصّ الإنسان من العقل والرّويّة والمعاني التي ميّز بها" (محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي، 1973م، ص: 357-359).

2. التمثيل

أولاً: التمثيل في الدلالة اللغوية

يقول ابن فارس: "الميم والثاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا، أي نظيره. والمثل والمثال في معنى واحد، وربما قالوا مثيل كشيء.. والمثل المثل أيضا كشيء وشبيهه.." (أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، 1979م، ص: 296)

ثانياً: التمثيل اصطلاحاً

أ. في اصطلاح المتقدمين

لم تحدّد معالم التمثيل عند المتقدمين بشكل دقيق، فإذا ما تتبعنا جذور تلك المرحلة المتقدمة لا نجد هنا قائماً بذاته عند أصحابها، بدءاً بالجاحظ وانتهاءً بأبي هلال العسكري، وهما يضمنان ابن قتيبة والهيروادى وقدامة وغيرهم.

أما الجاحظ فقد ثبت أنه يسمي التمثيل تشبيهاً والتشبيه تمثيلاً يقول في قول الله تعالى: "وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءآيَاتِنَا فَانسَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَقَلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ حَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَثْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ لَعْنَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٦﴾" (الأعراف 175-176)، فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب بهذا المذكور في صدر هذا الكلام... فما يشبهه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله - ولم يذكر غير ذلك - بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولّى ذاهباً، وإن تركته شدّ عليك ونبح.. " (أبو عثمان بحر بن عمر الجاحظ، 1965م، ص: 16)، كما يضرب لنا الجاحظ مثالا آخر في استعماله لمصطلحي التشبيه والمثل استخداماً واحداً من غير أن يقيم فروقاً بينهما، في قوله عزّ وجلّ: " إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٣٥﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٣٦﴾ " (الصافات 64-65)، يقول الجاحظ فيها: «فقال أهل الطعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهّمه، ولا وُصفت لنا صورته في كتاب ناطق، أو خبر صادق. ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفريع منها. وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره" (المرجع نفسه، ج: 6، ص: 212)، وبذلك يتضح أنه إن كان يطلق لفظ "التمثيل" تارة و "التشبيه" تارة أخرى على حدّ سواء.

التي على الرغم من عدم اتصافها بالتعليل المنطقي، فإنها تمتلك القدرة على التأثير المُقنع إن لم تكن وهماً (إحسان عباس، 1955، ص: 231).

ارتبطت دراسة الصورة وأنماطها عند الغربيين بالدلالات المتعددة للمصطلح، وتأثرت بمختلف المناهج في تطبيقها لهذه الدلالات لاسيما المنهج النفسي، والمنهج الرمزي، والمنهج البلاغي، وقد "كانت الطريقة الإحصائية غالبية على هذه المناهج في دراستها للأنماط وتصنيفها عند الغربيين" (بشرى موسى الصالح، 1994، ص: 105)، ولا بد أن المقام لا يناسب البسط في أساسيات هذه المناهج (للاستزادة يُنظر: نعيم اليافي، 1993، ص: 226) في دراستها للصورة والعقبات التي اعترضتها، وما يمكن الإشارة إليه أن التقدير الحديث اليوم يبين أن الصورة هي: التركيبة اللغوية المحققة من امتزاج الشكل بالمضمون، في سياق بياني خاص، أو حقيقي موحّ كاشف ومعبر عن جوانب التجربة" (بشرى الصالح، ص: 20).

ولعل أبرز مظهر يقترب بالصورة هو طابعها الحسيّ وقدرتها على الانزياح والإيحاء، وقد تنبّه الأدباء والنقاد العرب إلى أهمية الصورة في نقل المجردات في طابع محسوس يجعلها ماثلة كأى مُشاهد آخر، كما ركزوا على ارتباطها بجانب الخيال والإبداع البعيدين عن الوهم يقول الزمكاني (ت: 651هـ): "الصورة عنصر محسوس يستقيه الكاتب من خارج الموضوع الذي يعالجه، ويستخدمه بغية توضيح قصده، أو الوصول إلى شعور القارئ بواسطة الخيال" (فرانسوا مورو، 1995م، ص: 23)، فللصورة بحمولتها الجمالية الإيحائية القدرة على التأثير في المُتلقي، من خلال العوالم الجديدة التي تخلقها، من خلال تفتيتها للواقع المرئي وإعادة تركيب البنى، استناداً على القدرة الفذة للأديب في ربط الظواهر المجردة أو الخفية بالموجودات المعانية، وإبنا نجد النبيّ صلى الله عليه وسلم في مقامات عدّة يستعمل الصور لنقل الغيبيات وغيرها من المعقولات التي يصعب إدراكها، غير أنه للصورة في الفنّ الحديثيّ النبويّ استعمالات خاصة، فهي مُحاطة بالوحي الذي لا سبيل فيه للوقوع في اللأوعي أو اللأشعور، بل إنّه محكومة بالوحي المُحكم بإبلاغية الصورة وفق ما يفرضه الواقع، فمقولة الفنّ للفنّ بعيدة عن هذا الحديث النبوي، لأنه يندرج في مقاصد الدّين الحنيف، ويفصل أموره ويشرحها ولا يمتزج بالجمال إلا لغايات أبرزها إقرار الحقّ والإقناع به.

الجرجاني، د س ن، ص 90-92)، فالجرجاني يُشير إلى التشبيه الصريح والتشبيه التمثيلي، ويبيّن أنّ هذا الأخير يحتاج نوع من التأويل والتنقيب عن المعنى قصد سبر أغواره، ثمّ إنّ هذا التأويل تتعدّد مشاربه وتتفاوت درجاته بين ما يسهّل الظفر به وما يحتاج إلى رويّة يتبعها كدّ وعناء، ومدار ذلك على مدى حذق المخاطب وقدرته على كشف المخبوء الخفيّ.

وقد تنبّه أيضا إلى الفائدة الحجاجية للتمثيل ووظائفه الفنيّة والخطابية حيث يقول: "واعلم أنّ ما اتفق العقلاء عليه، أنّ التمثيل (إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، وثقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهةً، وكسبها منقبةً، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها أقاصي الأفضة صابئةً وكلفا... وإنّ كان ججاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقر، وبيانه أبهر." (المرجع نفسه، ص 115)

وقد استقرّ مفهوم التمثيل في اصطلاح البلاغيين على أنّه ما كان وجه الشبه فيه صورة مُنتزعة من متعدّد.

3. الأبعاد الحجاجية للصورة التمثيلية

إنّ البلاغة بما فيها من أدوات فنيّة وصور بيانيّة تعدّ مهذا للإبداع، وهي كذلك معرض فكر ورؤى، تمحورت حول شقين أساسيين: الشقّ الأدبي الإمتاعيّ والشقّ الحجاجيّ الإقناعيّ، الإمتاع بعده إجراءات أسلوبية وفنيّة، تستهدف استمالة المخاطب حسياً بجعل القول مُحركاً لعواطفه ونفسه، والإقناع بعده يقوم على مسار استدلاليّ يستهدف التأثير الفاعل في المخاطب لتغيير أو تعديل موقفه أو سلوكه. إنّ الحجاج بمنظور بلاغي لا غنى له عن الجمال، فالجمال يُرشد العملية الإقناعية وييسّر على المتكلم ما يرومه من نفاذ إلى عوالم المُتلقي الفكرية والشعرية ("دريدي سامية، ص: 120)، وهنا تكمن أهميّة الصورة التمثيلية، حيث تكون بديلاً عن الفكرة والمعنى أو المفهوم، سواء جاء هذا التعبير بالصورة للكشف عن كوامن النفس أو لمجرد الإمتاع أو التأثير أو الحاجة إلى الإقناع، وإنّ تأثيرها يكمن "في الطريقة التي تقرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى، ونتأثر به، إنّها لا تشغل الانتباه بذاتها إلا أنّها تريد أن تلتفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه، وتفاجئنا بطريقتها في تقديمه، هناك معنى مجرد، اكتمل في غيبة من الصورة، ثمّ تأتي الصورة

وقد ركز ابن قتيبة (ت 276هـ) على التشبيهات المركبة، وأكّد على أنّ التشبيه يقوم أصلاً على إلحاق ناقص بكامل، وضعيف في الصفة بما هو أقوى منه، وقد قدّم الكثير من التحليلات البلاغية للصورة التمثيلية في الشعر العربي تحت عنوان: "محاسن التشبيه" (ينظر: أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، 1996م، ص: 186-197) في كتابه: "عيون الأخبار" غير أنّنا لا نلمس من خلالها التفريق بين التشبيه والتمثيل.

ولا نجد أنّ المبرّد (في "الكامل" بعد أن عقد دراسة طويلة للتشبيه قد فرّق بينه وبين التمثيل، فقد كان شديد الوقوف على الصور المركبة شأنه في ذلك شأن ابن قتيبة، غير أنّه هو الآخر استعمل كلاً من التشبيه والتمثيل على حدّ سواء دون تفريق، وجعل أقسام التشبيه محصورة في: المفرد والمصيب والمقارب والبعيد.

إذا ما اقتفينا أثر التمثيل عند ابن طباطبا (ت 322هـ) وقدامة بن جعفر (ت 337هـ)، وغيرهم فإنّنا لا نلمس تغييرات جذريّة عمّا أتى به سابقوهم، إلا أنّنا إذا ما رجعنا إلى أثر الرّماني (ت 386هـ) وجدنا أنّ دراسته قد شكّلت التّوة لها أتى به الجرجاني فيما بعد.

إنّ هذه الدراسات التي لم تُعرف فيها معالم التمثيل، كانت بالأساس مرحلة تأسيسية ساهمت في بلورة هذا الفن عند المتقدّمين مع عبد القاهر الجرجاني وغيره.

ب. في اصطلاح المتأخرين

نأتي إلى عبد القاهر الجرجاني والذي يرى أنّ التشبيه على ضربين، ضربٌ جليّ بيّن، لا يحتاج إلى إمعان وتنقيب عن أطرافه وما يرمي إليه، وضربٌ يحتاج إلى شيء من التأويل، يقول في بيان ذلك: «اعلم أنّ الشيين إذا شُبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج إلى تأوّل، والآخر أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأوّل، فمثال الأوّل تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجهه وبالحلقة في وجه آخر... فالشبه في هذا كليله بيّن لا يجري فيه التأوّل، ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأيّ تأوّل يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة، وأنت تراها هنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرّجل... ومثال الثاني هو الشبه الذي يحصل بضرب من التأوّل...» (عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمّد

التَّارِ سَطْوَعُهَا وَهِيَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ مُضِيءٌ حَارٌّ مُحْرِقٌ.. إِذَا نَفَرَ لَأَنَّ فِيهَا حَرَكَةً وَاضْطِرَابًا.. كَأَنَّهُ قِيلَ حَالُ النَّاسِ الْعَجِيبَةِ الشَّانِ فِي دُعَائِي إِيَّاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ الْمُتَّفِدِّ لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَمَثَلٌ مَا زَيَّنَتْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ مِنَ التَّمَادِي عَلَى الْبَاطِلِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا (فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا)... (جَعَلَ الْفَرَاشُ) بَفَتْحِ الْفَاءِ وَالرَّاءِ الْمُخَفَّفَةِ وَبَعْدَ الْأَلْفِ شَيْئًا مُعْجَمَةً جَمَعَ فَرَاشَةً بَفَتْحِ الْفَاءِ وَهِيَ دَوَابٌّ مِثْلُ الْبَعُوضِ فِي الْأَصْلِ وَهِيَ الَّتِي تَطِيرُ وَتَهْتَفِقُ فِي السَّرَاجِ بِسَبَبِ ضَعْفِ أَبْصَارِهَا فَهِيَ بِسَبَبِ ذَلِكَ تَطْلُبُ ضَوْءَ النَّهَارِ إِذَا رَأَتْ السَّرَاجَ بِاللَّيْلِ ظَنَّتْ أَنَّهَا فِي بَيْتِ مُظْلِمٍ وَأَنَّ السَّرَاجَ كَوَّةٌ فِي الْبَيْتِ الْمَظْلَمِ إِلَى الْمَوْضِعِ الْمَضِيءِ وَلَا تَزَالُ تَطْلُبُ الضَّوْءَ وَتَرْمِي بِنَفْسِهَا إِلَى الْكَوَّةِ إِذَا جَاوَزَتْهَا وَرَأَتْ الظَّلَامَ ظَنَّتْ أَنَّهَا لَمْ تُصَبِّ الْكَوَّةَ وَلَمْ تَقْصِدْهَا عَلَى السَّدَادِ فَتَعُودُ إِلَيْهَا حَتَّى تَحْتَرِقَ..» (المرجع نفسه ، ج 2/ ص 394-395)

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَّ أَنَّ الرَّجُلَ أَخَذَ يَنْهَرُهَا وَيَحْجِبُهَا عَنِ النَّارِ. وَهِيَ تَقْصِدُهَا فَتَقَعُ فِيهَا. يَقُولُ الشَّنْقِيطِيُّ: «مَا ذَكَرَ مِنْ حَالِ الرَّجُلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا صَارَ الْفَرَاشُ وَالذُّوَابُ كَالْبَعُوضِ يَفْتَحِمَنَّ فِيهَا وَالرَّجُلُ يَمْنَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ وَهُنَّ يَغْلِبُنَّهُ وَيَفْتَحِمَنَّ فِي النَّارِ...» (المرجع نفسه ، ج 2/ ص 395)

موردُ الحديث وطاقته الإقناعية

الحديث من التشبيه التمثيلي، وهو صورة في غاية الدقة، والروعة والجمال، لها فيها من إحياء وإشارة واضحة إلى جرحه صلى الله عليه وسلم، وأدائه لها وُكُلَ إليه من أمانة على أجمل وجه وأكمل صورة، فهو يقدم الصورة لينبه إلى ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من جرح على تقويم سلوك الناس وإرشادهم وإنذارهم، وما كان من هؤلاء من إغراض وإصرار على ما يضرمهم ولا ينفعهم، والمثل الذي يضربه عليه السلام مفعم بالحركة، يجعل متلقيه ينجذب نحو ما يرسومه هذا التسلسل في أجزاء الصورة، حيث ضرب عليه السلام المثل لنفسه برجل استوقد نارًا، ونلاحظ هنا إجمال الصورة في البداية ليأتي بعدها التفصيل فيما ترتب عن إيقاد النار وغيرها. (فلما أضاءت ما حولها) ولنا أن نتخيل تمازج الألوان، حيث يفتح لنا أفق الصورة أن نرى الرجل في الليل وقد ملأ الظلام محله، فلما أوقد النار أضاءت المكان وأنارته، وجعل الفرائش يقصدها ويقع فيها، فهي لا تزال تطلب النور حتى تلتمسها النار، لذلك ضرب بالفرائش المثل في الطيش وغيره

فتحتوي ذلك المعنى أو تدل عليه، فتحدث فيه تأثيراً متميزاً، وخصوصية لافتة، ذلك لأنها لا تعرضه كما هو في غزلة واكتفاء ذاتيين، إنما تعرضه بواسطة سلسلة من الإشارات إلى عناصر أخرى... وبهذه الطريقة تفرض الصورة على المتلقي نوعاً من الانتباه واليقظة، ذلك أنها تبطئ إيقاع التقائه بالمعنى، وتتحرف به إلى إشارات فرعية غير مباشرة، لا يمكن الوصول إلى المعنى دونها" (جابر عصفور، 1991، ص: 327-328)

يعد التمثيل من أهم الأدوات الحجاجية التي تحدث تأثيراً فعالاً على المتلقي، فهو بمثابة استدعاء للمعنى الذي يمثل الادعاء ليشهد واقعا مائلاً أمام المعترض، وبذلك يقع في نفسه فيكون له بالغ الأثر في تغيير موقفه ورأيه، لذلك قال الجرجاني: «فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثّل ثم مثله كمن يُخبر عن شيء من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجاب» ويقول: "ها هو ذا، فأبصر تجده على ما وصف" (المرجع السابق، ص 122)، وكان التمثيل من خلال ما ينقله بصور للمخاطب مشهداً يدعو إلى التصديق بالمقال، وكان تأثيره أبلغ من أي صورة أخرى.

4. حجاجية التمثيل النبوي وطاقته الإقناعية

عرج النبي من خلال تمثيلاته على أكثر العناصر بروزاً وحضوراً في البيئة العربية، وتوغل بمنطقي سديد تُسَعِّفُهُ فِي ذَلِكَ أسرار اللغة على انتقاء الصور المناسبة للمواضيع المناسبة، ونسج علاقات بينها وبين ما تُوحى به. نحاول قدر الإمكان إبرازها وتحليلها من خلال التفصيل في الصور لاسيما ما انتزع فيه المشبه به من عمق البيئة والثقافة العربية، مع بيان طاقاتها الإقناعية.

أ. النار

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفرائش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها قال فذلكم مثلي ومثلكم أنا أخذ يحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتحمون فيها.» (الشنقيطي، ص 394-396)

شرح الحديث:

يقول الشنقيطي في شرح الحديث: «قوله مثلي كمثل رجل أي كحال رجل (استوقد) أي أوقد (ناراً) فاتقدت ووقود

في ذلك مثله مثل الرجل الذي أوقد ناراً ليستضيء بها هو ومن حوله. وجعل من ضلّ كالفراش الذي لا يملك التمييز بين التور والنار، أي: بين النفع والضّرر، ثم يبين عليه السلام اجتهاده في درئهم عن النار والهلاك وإصرارهم على الوقوع فيها. يقول الله جلّ وعلا في بيان جرّصه صلى الله عليه وسلّم: " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ " (التوبة-128).

وقد كان له صلى الله عليه وسلّم من خلال هذا الأسلوب الفريد من القصص التمثيلي أن مزج بين التصوير الحركي الذي يوقظ الخيال فيكون له فُسحة بين ثنايا هذه اللوحة الليلية، حيث امتزج ظلام الليل وحلّكته، بضياء النار ونورها، وهو من خلال كلّ هذا يسعى إلى نقل المعاني وبيانها ليكتمل فهمها في النفوس، «وفي الحديث تحذير الأمة من خداع العقل وفقدان القدرة على التمييز البصير كهذا الفراش، الذي يحسب النار ضوءاً وراح يرمي نفسه فيه... وهكذا الأمة حين تفقد الرؤية الصحيحة، فتبحث عن الهدى في طريق الضلال، وتترك نور النبوة...» (فائزة بنت سالم صالح أحمد، 1430هـ، ص131)، ويمكن توضيح ما أتى في هذا الحديث من تمثيل لجرّصه عليه السلام على الدعوة كالاتي:



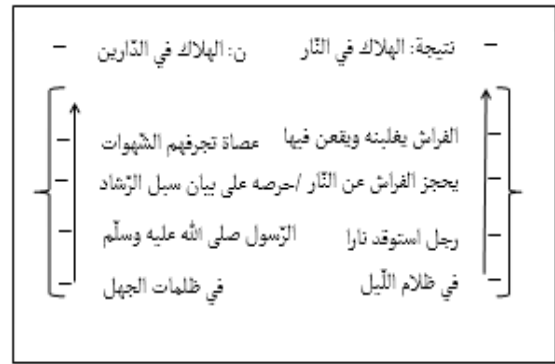
من مواضع الدّم والهجاء فيقال: «ما هم إلا فراش نارٍ، ودُبان طمعٍ». ويقال: «أطيش من فراشة، وأزهي من دُبان» (الجاحظ، ج3/ص305). والفراش هنا مثل الناس الذين جرفتهم الشّهوات والمهالك فوقعوا فيها بسوء تقدير منهم، وقد قال الشاعري:

كَأَنَّ بَنِي ذُوَيْبَةَ رَهَطَ سَلْمَى فَرَأَشَ حَوْلَ نَارٍ يَصْطَلِينَا
يَطْشَنَ بِحَرْهَا وَيَقَعْنَ فِيهَا وَلَا يَذْرِبْنَ مَاذَا يَتَّقِينَا
(المرجع نفسه، ص ن)

يقول عبد الفتاح لاشين: «الحديث كلّ تشبيه تمثيلي، فقد شبهه صفة الرسول وحاله في دُعائه الناس إلى الإسلام المُتَّقِدِ لهم من النار وما تُزِينُ لهم أنفسهم من التّماذي في الباطل، كمثّل رجلٍ عالِمٍ إيقاد النار وسعى في تحصيل كلّ ما به اشتداد نارها ونورها، ولكن بدل أن يهتدي بها الضالّ ويستترشد بها الحائر أقبل عليها الفراش والدوابّ الصغيرة تتهاوى فيها وتتساقط، والجامع بين الطرفين: اتباع الهوى وضعف التمييز وجرّص كلّ من الطائفتين على هلاك نفسه» (كمال الدين عبد الغني، 2001م، ص86). فالنبي يصوغ لنا المعقول في صورة المحسوس، من خلال القصة التي ذكرها، وقد أتت على سبيل التمثيل، لما فيه من قوة في التصوير، والتأثير في النفوس. أمّا القصة فقد عهد إليها النبي صلى الله عليه وسلّم كما هو الحال في عديد الأحاديث، لتطع في النفوس ويكون لها أثر إلى المدى البعيد، وقد أتى في القرآن الكريم مثل كهذا الذي ساقه النبي صلى الله عليه وسلّم، حيث يقول الله تعالى: "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾" (البقرة-17)، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: «وتقرير هذا المثل أنّ الله سبحانه شبههم في اشتراؤهم الضلالة بالهدى، وصبرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأس بها، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي...» (الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، 2000م، ص296) وإن كان المثل القرآني قد ضرب وأفاد معنى بعينه، قد يختلف بعض الشيء عن معنى الحديث إلا أنّ صياغة المثل النبوي والقرآني جاءت متشابهة متقاربة.

إنّ ما شبه النبي به نفسه يجيل إلى معنى وقيمة التور الذي جاء به صلى الله عليه وسلّم، وقد قال الله تعالى: "وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾" (الأحزاب-46)، وهو

كما يمكن التمثيل له حجاجيًا بالسلم الآتي:



ب. الرعي والإبل

▪ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَأَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَذُودَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوْضِي كَمَا تَذَادُ الْغَرِيبَةَ مِنَ الْإِبِلِ عَنِ الْحَوْضِ» (زاد المسلم، ج4/ص62-63).

شرح الحديث

هذا الحديث الجليل من الأحاديث المتواترة التي لقيت نصيبها من الشرح والتفصيل، كغيرها مما صح إسناده إلى النبي صلى الله عليه وسلم. يقول الشنقيطي في بيان معناه: «قوله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده) أي والله الذي نفسي بقدرته تعالى (لأذودن) أي لأطردن... والحكمة في الذود المذكور أنه صلى الله عليه وسلم يريد أن يرشد كل أحد إلى حوض نبيه إما ورد من أن لكل نبي حوضا أو أن المذودين هم المنافقون أو المبتدعون أو المرتدون الذين بدلوا.» (المرجع نفسه، ج4/الإحالة: 1، ص62)، وقد جاء في ذكر الحوض عدة أحاديث نذكرها بين ثنايا التحليل.

مورد الحديث وطائفته الإقناعية

ينتزع النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصورة مرة أخرى من عمق البيئة العربية، فهو يمثّل ذوده للمنافقين والكفار عن حوضه الشريف، بحال تشابه هيئة الراعي الذي ورد بإبله مورداً أو حوضاً، فإذا ما أرادت غريبة من الإبل الاختلاط بها، أبعدها وظلّ يذودها عن إبله، وكأنه صلى الله عليه وسلم راعٍ لأمته يتعهدها بالرعاية عند حوضه الشريف، تماماً كما يتعهّد الراعي إبله بالحفظ وذود كل خطرٍ وغريبٍ عنها، وقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال: «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي مَا بَيْنَ أُيْلَةٍ¹ (أَيْلَة: بلدة بين مصر والشام) وصنعاء من اليمن. وإنّ فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»² (زاد المسلم، ج1/ص80)، وفي حديثه صلى الله عليه وسلم تشويقٌ وجذبٌ للانتباه لما يكون عليه حال الناس يوم القيامة. أما المؤمنون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما المنافقون والكفار فتراهم في رهبة يقولون: "يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْكَفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أُنظِرُونَا نَقْتَسِمَ مِنْ ثُورِكُمْ فَيَقِيلُ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَأَلْتَمِسُوا ثُورًا فَقَضَرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِاطْنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُرُهُ مِنْ قَيْلِهِ الْعَذَابُ ﴿٥٠﴾" (الحديد 13).

ونجده صلى الله عليه وسلم أحكم التمثيل بأن جعل الصورتين متناسبتين. ويظهر ذلك من خلال حرص كل من النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك الراعي، على ما يتعهده بالرعاية والحفظ، فالتبني صلى الله عليه وسلم إنما أتى بهذا المستأنس من المشهود المحسوس في البيئة العربية، ليعبر عن غيبي لا يعلم حاله ومستقره إلا الله، وهو بهذا يجعلنا نخيل الوضع، حيث الكل منشغل بنفسه، لا يريد في ذلك الموقف إلا أن يروي ظمأه، وهيهات أن ينال الجميع شربة من حوضه عليه السلام، وبذلك يكون المبتعد من منافق وكافر كمثل الغريبة من الإبل، يذودها الراعي لاختلاطها بإبله.

يقرب عليه السلام من خلال هذا التمثيل مشهداً وموقفاً من مواقف القيامة، وكل ما يحمله من ألفاظ سبقت على وجه مخصوص، يجعلنا نتلمس في أعماقنا هولاً لا يُقَى إلا بفضل من الله وهداياته، وكأن التمثيل هنا أيضاً جاء لغرض الترغيب والترهيب، فالترغيب إنما هو في اتباع المصطفى، ومن ثمّ الظفر بشفاعته والاستئناس بقربه، وقد أتى حديث له عليه السلام في وصفه لحوضه الشريف، حيث تتعالى معاني التشويق، يقول: «حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق وريحه أطيب من المسك وكيانه كنجوم

¹ أَيْلَة: بلدة بين مصر والشام

² للمتفحص أن يرى عظم ما يتحدث عنه النبي ﷺ. وقد عرّ عليّ أن أمر مرور الكرام على هذا التعبير الحكم. فإذا كان الفلكيون لا يستطيعون تحديد عددها بل ويقومون بمقاربات وتقديرات عددية. وذلك بقياس كمية الضوء والتأثيرات الأخرى الناتجة عن عدد غير معروف من النجوم، ومقاربتها مع التأثير الكلي. ثم إن بعضهم يصرّح أنّ درب اللبانة وحدها يحتوي على ما يفوق المائة بليون نجم. مع العلم أنّ هذه الدرب لا تتألف إلا من النجوم الأقرب إلينا. فكأن تتصوّر عمق تشبيهه ﷺ وعظمه. يُنظر هذه المعلومات الفلكية التي أرذت ربطها بالحديث لبيان عظم ما ينقله ﷺ: أطلس دُول العالم الكبير مغامرات مُسَوِّقة في الجغرافيا، بيروت لبنان، د ط، ص43

شرح الحديث

يَشْبَهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ بِحَامِلِ الْمِسْكِ الَّذِي لَا يَنَالُ مَرِافِقَهُ مِنْهُ إِلَّا كَلَّ طَيْبٌ ، وَيَجْعَلُ رَفِيقَ السَّوِّءِ كَمَثَلِ نَافِخِ الْكَبِيرِ الَّذِي إِنْ لَمْ يُحْرِقْ ثِيَابَكَ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ ، وَفِيهَا يَلِي تَقْصِيلٌ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ وَالصُّورَةَ الَّتِي أَتَى عَلَيْهَا .

مورد الحديث وطاقته الإقناعية

في هذا الحديث ينقلنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جانب العلاقات الاجتماعية والإنسانية وما يكون بين البشر منها ، ولا بدَّ أَنْ ما يكون من هذه العلاقات مُتبايِنٌ مُخْتَلِفٌ مِنْ حَيْثُ الْحُسْنُ وَالسَّوِّءُ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْرِبُ لَنَا مَثَلًا فِي الرَّفَقَةِ الطَّيِّبَةِ ، الَّتِي تَكُونُ كَالْمِسْكِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِطَيْبِ رَائِحَتِهِ ، وَيَضْرِبُ لَنَا مَثَلًا فِي رَفَقَةِ السَّوِّءِ وَيَجْعَلُ الْجَلِيسَ السَّوِّءَ فِي صُورَةِ نَافِخِ "الْكَبِيرِ" (شعبان عبد العاطي عطية وآخرون ، 2004م ، ص 807) ، وَالْجَمِيلُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَخْرُجُ بِهَذِهِ التَّمثِيلَاتِ عَمَّا عَهَدْتَهُ وَأَلْفَتَهُ الْعَرَبُ . يَقُولُ كِمَالُ عَبْدِ الْغَنِيِّ : «وَالْحَدِيثُ فِيهِ تَمَثِيلٌ مُتَضَادِّينَ - هُمَا الْجَلِيسُ الصَّالِحُ وَالْجَلِيسُ السَّوِّءُ ، حَيْثُ جَعَلَ هَذَا فِي مَقَابِلِ هَذَا - وَكِلَاهُمَا مَشْبَهُ ، ثُمَّ جَاءَ بِالْمَشْبَهَةِ بِهِ الْمُنَاسِبَ لِلأَوَّلِ وَهُوَ (صَاحِبُ الْمِسْكِ) ثُمَّ بِالْمَشْبَهَةِ بِهِ الْمُلَائِمَ لِلثَّانِي وَهُوَ (كَبِيرُ الْحَدَادِ) ثُمَّ وَجْهَ الشَّبَهَةِ الْمُتَمَثِّلِ فِي التَّفَعُّعِ الْحَاصِلِ مِنَ الأَوَّلِ ، وَالضَّرْرَ الْحَاصِلِ مِنَ الثَّانِي . فَالْمَشْبَهَةُ وَالْمَشْبَهُ بِهِ جِسْتَانِ ، وَوَجْهَ الشَّبَهَةِ مَعْنَوِيٌّ مَفْصَلٌ مُنْتَزِعٌ مِنْ مُتَعَدِّدٍ » (كِمَالُ الدِّينِ عَبْدِ الْغَنِيِّ ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ ، ص 62) .

لَمَّا كَانَ تَحْرِييَ صُحْبَةَ الصَّالِحِينَ الْأَخْيَارِ وَمُجَاسَمَتِهِمْ أَمْرًا مِنَ الْأَهْمِيَّةِ بِمَكَانٍ قَصَدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّنْبِيهَ إِلَى ضَرُورَةِ الْحَرَصِ فِي انْتِقَاءِ الْجُلُوسَاءِ ، وَلَمَّا كَانَ الصَّاحِبُ سَاحِبًا كَانَتْ رَفَقَةُ الصَّالِحِينَ مَجْلِبَةً لِكُلِّ خَيْرٍ ، لِذَلِكَ شَبَّهَ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ بِحَامِلِ الْمِسْكِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ رِيحُهُ طَيِّبَةٌ وَفِي هَذَا (وَاللَّهُ أَعْلَمُ) إِشَارَةٌ إِلَى صِيَتِ وَسْمَعَةِ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ ، الَّتِي لَا تَفُوحُ إِلَّا بِشَدَى طَيْبِ بَيْنِ النَّاسِ ، فَإِنْ جَالَسْتَهُ لَمَسْتَ ذَلِكَ وَإِنْ اقْتَدَيْتَ بِهِ أَخَذْتَ مِنْهُ الْكَثِيرَ مِمَّا فِيهِ تَفْعُكُ ، لِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً" فَأَبَّا كَانَ مَا يَرِيطُكَ بِهِ فَهُوَ لَكَ زِيَادَةٌ فِي الصَّلَاحِ وَالْفَلَاحِ ، عَلَى عَكْسِ الْجَلِيسِ السَّوِّءِ الَّذِي لَا

السَّمَاءُ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْلَمُ بَعْدَهُ أَبَدًا» (الْمَرْجِعُ نَفْسَهُ ، ح: 416 ، ج 1/ ص 174-175) ، أَمَّا التَّرْهِيْبُ فَمِنْ يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ النَّادِمُ نَدْمَهُ ، فَنَقَلَ الْمَعْقُولُ إِلَى الْمَحْسُوسِ ، وَتَصَوَّرَ الْمَعَانِي ، وَطَبَّعَهَا فِي النَّفُوسِ ، بِشَيْءٍ مِمَّا احْتَضَنَتْهُ الْبَيْئَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَلْفَهُ الْبَدْوِيُّ كُلُّهَا دَلَائِلٌ تَمْتَرِحُ فِيهَا جُودَةُ الْانْتِقَاءِ وَسَلَامَةُ الْقِيَاسِ وَالْمُنَاسِبَةُ لِتَتَجَلَّى مِنْ جِلَالِهَا إِقْنَاعِيَّةُ التَّمَثِيلِ .

وَخَيْرٌ مَا يُخْتَمُ بِهِ تَصَدِيقٌ مِنَ الْمَوْلَى لِكَلَامِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ مَا يَزِيدُ تَمَثِيلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِقْنَاعِيَّةً وَتَحَقُّقًا ، يَقُولُ تَعَالَى : "إِنَّمَا أَعْطَيْتَكَ الْكُؤُوتَ ۝ (الْكُؤُوتُ 01) . وَقَدْ جَاءَ فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "أَتَدْرُونَ مَا الْكُؤُوتُ؟" قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : "فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، هُوَ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَنبِيَّتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي . فَيَقُولُ : إِنَّكَ مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ." (ابن كثير ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ ، ج 14/ ص 475-476) ، وَلَا بُدَّ أَنَّ هَذَا الصِّدْقَ فِي الْوَعْدِ يَزِيدُ النَّفْسَ تَشَوُّقًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُسَهِّمُ هَذَا التَّرَابُطَ بَيْنَ قَوْلِ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ ، وَبَيْنَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ ، فِي تَحْقِيقِ التَّمَكِينِ لِخُطَابَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَيْثُ الْإِبْلَاحُ وَالْإِقْنَاعُ .

ويمكن التمثيل للصورة بالسلم الآتي:

-	ن: يذود المنافقين	يمنع عنها الغريبة	-
	والكفأ	من الإبا	
-	ترد حوضه الشريف	ترد موردا للسقي	-
-	تستأنس به	تستشعر عنايته	-
-	يشفع لأمته	يرعى إبله	-
-	الرسول (ص)	الزاعي	-

ت. الحدادة والعطارة

▪ عن أبي موسى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِمَّا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً » (زَادَ الْمُسْلِمُ ، ح 260 ، ج 1/ ص 98) .

-	ن: الضَّرْبُ	-	ن: الضَّرْبُ	-
}	يحرق ثيابك	}	يفسد خلقك	}
	تجد منه ريحا خبيثة		الصَّيْثُ السَّيِّئُ	
	نافخ الكبير		جليس السوء	

ث. التَّهْرُ

▪ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرأيت لو أنّ نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرّات، هل يبقى من درنه شيئا؟"، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا" (البخاري، ج1/ ص: 197).

شرح الحديث

يتطرق النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث إلى فضل الصلوات الخمس في تطهير النَّفْسِ البشريّة من الخطايا، ويُقدّم لنا هذا الفضل المعنوي في صورة محسوسة تُزَوِّجُ بين الجماليّة والمقبوليّة، لاسيما وأنّ المُشابهة التي عقدها المُصطفى لا تحرق المنطق في شيء، وإنّما تُقَرِّبُ التَّصوُّرَ بشيء من الموضوعيّة التي تدحض أيّ اعتراض، فالمتفق عليه أنّ التَّهْرَ مُصدَّرٌ خصبٌ وخير ونماء، وماؤه العذب فيه طهارة للعباد وما يتصل بهم من ملابس وغيرها، وذلك معنى الدَّرنِ، فالدَّرنُ الوسخُ، وكذلك الأمر بالنسبة للصلاة التي تُطهِّرُ النَّفْسَ من الدُّنْيَا، فالصلاة تنهى عن المنكرات من الأقوال والأعمال يقول الله تعالى: "أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٥٤﴾" (العنكبوت-45)، وهي من التَّمثيلات البديعة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث شبه الصلوات الخمس بالتَّهْرِ الجاري.

مورد التَّمثيل وطاقته الحجاجيّة

أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأحد الأساليب التعلّيميّة الهامة، وهو السُّؤال أو الاستفهام، حيث يتّخذ صلى الله عليه وسلم "بابا واسعا لتقرير المعاني وزيادة الإيضاح، فكم جاء استيفاهمه تشويقا للسامع وقسرا لانتباهه، أو استدراجا وتقريراً، ليصل عن طريق الاعتراف إلى الاقتناع

يكون لصُحْبَتِهِ إلا ما يكون للبهيمة من جرب أخواتها، ومن وقع في جلساء السوء وهب معهم أينما هبوا لا بدّ أن يأتي يوم لا تنفعه فيه حسرة ولا ندم؛ يقول الله تعالى في بيان ذلك: "وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَنَّهُ لَمْ أَخَذُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ يَوَيْلَئِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴿٧٩﴾ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٨٠﴾" (الفرقان 27-29)، والوارد أنّ الآية نزلت في عقبه بن أبي معيط، جاء في أضواء البيان: «من المشهور عند علماء التفسير أنّ الظالم الذي نزلت فيه الآية هو عقبه بن أبي معيط، وأنّ فلانا الذي أضله عن الذكر أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف... وعلى كلّ حال فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فكلّ ظالم أطاع خليله في الكفر، حتّى مات على ذلك يجري له مثل ما جرى لابن أبي معيط.» (محمد الأمين بن محمد المختار الجكي الشنقيطي، 1426هـ، ص347)، والآية الكريمة تبين أنّه لا جدوى من الحسرة والتّندّم في مثل هذا اليوم.

والواضح أنّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أتى بالتمثيل منذ بداية حديثه وامتدّ إلى آخر الحديث، وفي مقدّمة كلامه عرضٌ لِحُجَّتِهِ عليه السلام والتي يبتدئها بأداة التوكيد إنّما، ثم يقدّم صورة الرّفقة الطيّبة ورفقة السوء على سبيل التمثيل بحامل المسك ونافخ الكبير، فقد قام التمثيل هنا أيضا على علاقة قياسية بين الأطراف.

يمكن التَّمثيل للصورة بالسلمين الآتيين:

-	نتيجة: الانتفاع	-	ن: الانتفاع	-
}	السمعة الطيبة	}	تجد منه ريحا طيبة	}
	تقتدي به		تبتاع منه	
	الجليس الصالح		حامل المسك	

تحمل الصورة المتحركة التابضة بالحياة التي رسمها النبي صلى الله عليه وسلم معاني إباحية فائقة الروعة وصالحة لكل زمان ومكان، فإذا كان العربي قديماً يتتبع مساقط الغيث ومنايت الكلا، فلا أحب إليه من أن يقع على أرضي بها الماء، كيف إذا كان الماء نهراً مُتدفقاً عذبا، يُعينه على أمور دينه من مغسل ومشرب ومورد وغيرها، "ولا شك أن النهر بقربه من ديارهم يُشعرُ بالطمأنينة وقرب المغفرة، وسهولة الحوذة عليها، فيبدو هذا الجماد في صورة آلة تُخْلِصُ المَشْهَدَ من البقع السوداء التي هي الخطايا، حتى ترسم أمامنا صفحة بيضاء... والحديث يستحضر الرؤية من أوله، إذ بدأ به (أرأيتم)، ثم تكون إجابة التقرير بالحجة الواضحة" (احمد زكريا ياسوف، المرجع السابق، ص: 344-345)، لا بد إذن أن هذه المعاني التي حملتها الصورة النبوية، تدخر طاقات حجاجية وإقناعية هائلة يمكن إدراجها في السلم الحجاجي الآتي:

النتيجة: يطهر من الدن	ن: تطهر من الخطايا
الاعتسال خمس مرات	إقامتها خمس مرات
عوان على العيش	فيها قضاء للحاجات
النهر الجاري العذب	المداومة على الصلاة بنية

ج. الدرع

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل البخيل والمُنْفِقِ كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد³ من نديهما إلى تراقيهما فأما المُنْفِقُ فلا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَعَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بِنَانَهُ وَتَعْفُو أَثْرَهُ وَأما البخيلُ فلا يُريدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلَّا لَرَقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا فهو يوبسُفُها فلا تَسْعُ» (زاد المسلم، ح: 731، ج: 2/ ص 377-381).

شرح الحديث

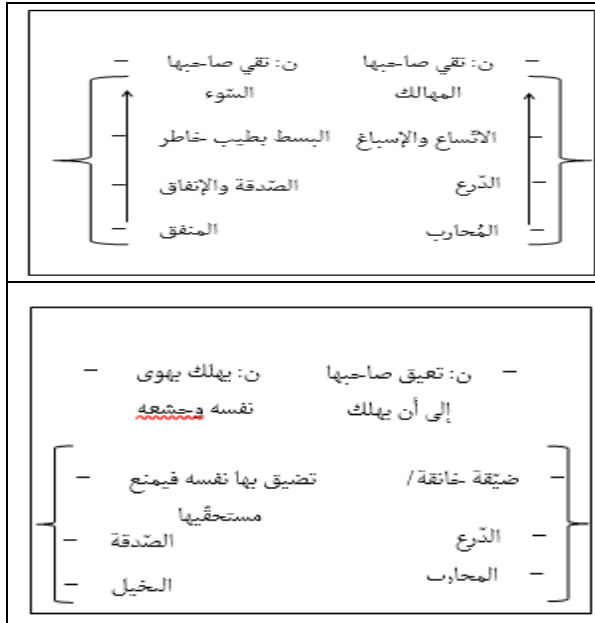
أتت في الحديث شروح عدة، ولكن أهم ما يُستخلص من بينها هو أن الصدقة والإنفاق لوجه الله تعالى تستر الخطايا والذنوب تماماً كما يسر الثوب الجسد، وأضاف كلمة "سبعت / وفرت" والثوب السابغ طويل يُجر ولا يترك أثراً لشئٍ صاحبه لذلك أزدقت فيما بعد ب "وتعفو أثره". أما

³ قيل ثوب مخصوص ولا مانع من إطلاقه على الدرع، وفي رواية جبتان والجمعة في الأصل الحوض وسُميت بها الدرع لأنها تجر صاحبها أي تحضنه وتستره. يُنظر: زاد المسلم: ج: 2/ ص 377.

بخطأ أو صواب، أو غير هذا" (كمال عز الدين السيد، 1984م، ص: 361)، وهو في هذا الحديث استدراج وتقرير في الآن ذاته، فهو يستدرجنا إلى الاقتناع بفحوى خطابه من خلال الترغيب، ويشوقنا من خلال الصورة التي تستدعي تتبعاً لأجزائها المترابطة، ليقر بعدها أمراً في غاية الأهمية وهو فضل الصلاة على العبد ونفسه، "والاستفهام من الأساليب الإقناعية العظيمة في مخاطبة العقول وصرافها إلى الأمر المستفهم عنه بكل روعة وجمال، وبدون تكلف وتصنع يُعجب المُتَكَلِّم والمخاطب.. والاستفهام بالهمزة يأتي دائماً وغالبا للدلالة على شيء يثبت في النفس حكمه، أما (هل) فيستفهم بها عما يترجح فيه نفي ولا إثبات" (طه عبد الله محمّد السباعي، ص: 262).

وقد وضع السامع أو المخاطب أمام مشهد يصور له هذا النهر الجاري العذب، اللصيق ببيت الإنسان، إذ لا يخرج من بيته إلا وينغمس فيه حتى إذا خرج منه خرج نظيفاً نقياً طاهراً، لتأتي قيمة السؤال في بيان أن حقيقة الماء العذب الصافي الجاري، هي التطهير، ثم يصرف النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبيه عن هذه الصورة إلى صورة أخرى ثمائلها، والأولى أصل في بيان وتوضيح الثانية، فيقول: "فذلك مثل الصلوات الخمس.. فانتقاله بين الصورتين يربط التفسير (فذلك) والذي تلاه مباشرة لفظ (مثل) يجعل المخاطب ينتقل تلقائياً إلى المشابهة التي بناها النبي صلى الله عليه وسلم فإذا كانت الصلاة مثل النهر وكان النهر مطهراً من الدن فالصلاة أيضاً مطهرة ولكن لم؟ تأتي الإجابة من المصطفى أنها تمحو وتطهر من الخطايا، وهذا أساس المشابهة بينهما، وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه النهر دون غيره لمقصدٍ تقصاه صلى الله عليه وسلم بحكمة بالغة، فمعلوم أن مياه الأنهار الجارية من أعذب المياه، والماء لا جرم جوهر الحياة البراق يقول الله تعالى: "أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾" (الأنبياء 30). فالماء رمز للحياة والنباء والخصب، وقد اقترن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بالفعل المضارع "يغتسل" للدلالة على التجدد الدائم، والتكرار، وكأني به يقول: لكم في الصلاة الدائمة المتكررة في أوقاتها طهارة من الخطايا، وتجديد للحياة، كما للعالمين من الماء حياة، وما أطيبها وما أعذبها من حياة.

المرجع السابق، ج 8/ص 476)، فالإنفاق إذًا من صنائع المعروف التي تقي أصحابها مصارع السوء⁴. ولا بدّ أنه على درجات، والنبي صلى الله عليه وسلم إنّما يرعّب في المحمود منه، وقد يسأل السائل: وهل من الإنفاق مذموم؟ ربّما كانت الإجابة أنّ الإنفاق إذا ما زاد عن حده انقلب تذبذبًا، وقد نهى ديننا الحنيف عن التبذير يقول تعالى: "إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٤﴾" (الإسراء 24)، ويمكن التمثيل له حجاجيًا بالسلمين الآتيين:



إنّ كلّ ما يُحدّثه التمثيل في هذا الحديث من تأثير، يزداد تحقّقه من خلال أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، الذي يأمر بالكرم والإنفاق ولا يأتي بخلقٍ ذميم كالبخل وحاشاه أن يكون بخيلاً، بل وكان يدعو الله «أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفِتنة الدجال وفِتنة المحيا والممات» (زاد المسليم، ح ر: 1083، ج 5/ص 33-35).

خاتمة

في ختام هذا العمل يُمكن إبراد النتائج الآتية:

- إنّ الحديث النبوي من الخطابات الكونية التي سعى النبي صلى الله عليه وسلم من خلالها إلى ترسيخ عقيدة ربّانية، أسعفته في ذلك حكمته، وبصره بمواطن الفرصة،

البخيل فتضيق نفسه بالصدقة فيكون كمن أراد ليس جبة فعلق بربّته وهي إلى ضيقٍ عليه، هذه الجبة التي كانت من الثدي إلى الترقوة أصبحت طويلة الكمين إلى أن غطت أصابعه، وكذلك طالت حتى أسبغت وهي مثال المنفق، بالمقابل تضيق جبة البخيل حتى تثقل على صاحبها (البخيل) يقول الخطابي: «حقيقة المعنى أنّ الجواد إذا همّ بالتفقه اتسع لها صدره وطاوعته يده فامتدت بالعطاء والبخيل يضيق صدره وتنقبض بها يده..» (المرجع نفسه، ج 2/ص 378).

مورد الحديث وطاقته الإقناعية

هذا الحديث الجليل هو من قبيل التشبيه التمثيلي، وقد انتزع النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصورة من مألوف لدى العرب، وتظهر هذه الصياغة والجودة في ربط العلاقات والتصوير خبرته صلى الله عليه وسلم بلباس الحرب، وقدرته على توظيفها في مقام كهذا، لذلك ضرب المثل لمن يُنفق في سبيل الله بالدرع التي كلّما كان الإنفاق عن طيب خاطر كان أشبه بالدرع المُتسعة المُسبّعة على صاحبها والواقية له، وكلّما استحکم البخل بالنفس كان كدرع ضيقة تكبل يدي صاحبها فلا هو يستطيع حراكها ولا هو يستطيع توسعتها ليُرفع عنه الضيق.

والغرض من وراء الحديث هو الإقناع والإفهام وكذا الترغيب والحثّ على الإنفاق من جهة، والتنفير من البخل من جهة أخرى، وقد ضرب صلى الله عليه وسلم المثل بالدرع لما في ذلك من مناسبة لفحوى خطابه، وفي الحديث تلميح إلى حال المؤمن الذي يكون دائماً «في حالة حربٍ مع نفسه الأتمة بالسوء والتي تدعو دائماً إلى التقتير والإمساك عن التّفقة، فكيف يحارب وهو يعاني من درعه الضيقة التي تُعيق تصرفه ثم هي في النهاية تصرّعه.» (كمال الدين عبد الغني، المرجع السابق، ص 56)، وقد نهى الله عزّ وجلّ عن البخل في قوله: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٣٠﴾" (الإسراء 29-30)، وإننا نجد ابن كثير يفسّر هذه الآية إلى أن يأتي على ذكر الحديث يقول: «يقول الله تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش ذاماً للبخل ناهيك عن السرف: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ" أي: لا تكن بخيلاً مُنوعاً لا تُعطي أحدا شيئاً.. وقوله: "وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"، أي: ولا تُسرف في الإنفاق فتُعطي فوق طاقتك وتُخرج أكثر من دخلك فتقعُد ملوماً محسوراً» (ابن كثير،

⁴ اقتباس لفظ رسول الله ﷺ. عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء والصدقة خفيّة تُطفئ غضب الربّ، وصلّة الرّحم زيادة في العمر، وكلّ معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة"

- لم ينح النبي صلى الله عليه وسلم في نسج صورته إلى الغرابة والتعقيد، بل كانت صورته واضحة دقيقة.

- التمثيلات النبوية تتقارب والتمثيلات القرآنية التي حملت هي الأخرى المعاني بصور بديعة قريبة من النفس.

ووسائل الحجة، فناهض أرباب البيان وأرسى عقيدة التوحيد بالحجة والبيان.

- لا تتصف الصورة بالتعليل المنطقي، غير أنها تمتلك القدرة على التأثير المقتنع ما لم تكن وهما أو مغمرة في التخيل.

- كانت استخدامات النبي صلى الله عليه وسلم للصورة متفردة تعكس وعيه بوظيفتها الفاعلة في إرساء المعاني وتثبيتها، ولتتبع الصورة النبوية أن يلمس ذلك النسيج المحكم الذي تترابط فيه أجزاؤها، لتفضي إلى النتيجة المبتغاة.

- كان توظيف الصورة في الحديث النبوي مقصودا، كونها وسيلة من وسائل الإقناع التي تشغل الفكر والنفس معا، لما تتمتع به من طاقات حجاجية، لها القدرة على إعادة توجيه الفكر طواعية بعيدا عن الإكراه.

- للصورة التشبيهية النبوية أبعاد حجاجية، تنقل المعاني من التجريد إلى التجسيد، في قالب بياني يتوسل به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة حقائقه وصياغة تصوراتها، وقد استخدمها كوسائل تبليغية إقناعية توجه مسارات الخطاب إلى نتائج ليس للخصم الاعتراض عليها، لها له من شراكة في استخلاص المعنى المتوصل إليه.

- نوع النبي صلى الله عليه وسلم مشارب التمثيل في حديثه، فاستمد من المستأنس ما يراه خادما للموقف والحال، وقد كان لعناصر الطبيعة حضورا لافتا في الصورة التشبيهية النبوية عموما لاسيما التمثيلية منها، فنراه يلج بنا أعماق البيئة العربية، تارة مع الإبل والفلو والفرس وغيرها، وتارة مع فصائل التبات من خامة الزرع والتخيل والشجر، وتارة مع الأترج والحنظلة، أما الطيب الدال على الخصب والثماء فما قرنه عليه السلام إلا بطيب، وكان الخبيث منها ملائها لأحوال المنافقين وسيء الأحوال والأفعال لها في ذلك من خبت.

- يحول التمثيل في الحديث النبوي شحنة تخيلية تستدعي جانب تتبّع أجزائه ومفاصله، ومن ثم ربط العلاقات ربطاً منطقياً يستجيب لفحوى خطابه عليه السلام، وبذلك يتحقق الاقتناع لدى المخاطب.

- اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم السؤال أداة تعليمية تفريرية، حرك من خلالها الأذهان، وشوق إلى معرفة الحقائق، كما كانت بابا للحوار الذي يجعل المخاطب شريكا في التوصل إلى النتائج.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
1. إحسان عباس، فنّ الشعر، د ط، دار بيروت للطباعة والنشر، 1955م.
 2. أحمد الشايب أصول النّقد الأدبي، د ط، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، 1973م.
 3. أحمد بن فارس بن زكريّا، معجم مقاييس اللّغة، تح: عبد السلام محمّد هارون، د ط، دار الفكر، د ب ن، 1979م.
 4. أحمد زكريا ياسوف، الصّورة الفنّيّة في الحديث النبويّ الشريف، تق: مُجّد سعيد رمضان البوطي وعصام قصبجي، ط 2، دار المكتبي، سورية، 2006م.
 5. الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّغب، المفردات في غريب القرآن، تح: محمّد سيّد كيلاني، د ط، د ب ن، د س ن، البخاري، الصّحيح، تح: مصطفى البغا، ط 1، مطبعة الهندي، دمشق 1976م.
 7. بشرى موسى الصّالح، الصّورة الشعريّة في النّقد العربي الحديث، ط 1، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء وبيروت، 1994، جابر عصفور، الصّورة الفنّيّة في الثّراث النّقدّي والبلاغي عند العرب، ط 3، المركز الثّقافي العربي، بيروت، 1991م.
 9. الجاحظ أبو عثمان بحر بن عمر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، ط 2، د د ن، 1965م.
 10. الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد، أسرار البلاغة، تع: محمود محمّد شاكر، دار المدني، جدّة، د س ن.
 11. الحصري أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تق: صلاح الدين الهواري، ط 1، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، 2001م،
 12. دريدي سامية، الحجاج في الشعر العربي القديم، عالم الكتاب الحديث، أريد لبنان، د س ن.
 13. الدّينوري أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، كتاب العلم والبيان، ط 2، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، 1996م،
 14. الرفاعي، تاريخ آداب العرب، مر: عبد الله المنشاوي / مهدي البحقيري، د ط، مكتبة الإيمان، د س ن.
 15. الزّبيدي محمّد مرتضى الحسيني، تاج العروس، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، 1973م.
 16. شعبان عبد العاطي عطية وآخرون، المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدّوليّة، 2004م.
 17. الشّنقيطي محمّد الأمين بن محمّد المختار الحكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إيش: بكر بن عبد الله بن زيد، ط 1، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، 1426هـ.
 18. الشّنقيطي محمّد حبيب الله، زاد المُسلم فيما اتّفق عليه البخاري ومُسلم، د ط، دار إحياء الثّراث العربي، بيروت، د س ن.
 19. طه عبد الرحمن، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، د ط، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، 1997،
 20. طه عبد الرّحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د ط، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، 2000م.
 21. طه عبد الله محمّد السّبعاعي، أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، د ط، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، د س ن.
 22. فائزة بنت سالم صالح أحمد، تأمّلات بلاغيّة في التّشبيهات التّمثيليّة في الصّحّحين، ط 1، دار الخراز، جدّة، 1430هـ.
 23. فرانسوا مورو، الصّورة الأدبيّة، تر: علي نجيب إبراهيم، ط 1، دار الينابيع، دمشق، 1995م.
 24. فنسنت ولفيف، المعجم المفهرس لألّفاظ الحديث، ط 1، مطبعة بريل، لندن، 1955م.
 25. ابن كثير الحافظ عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تح: مصطفى السيّد محمّد وآخرون، ط 1، مؤسّسة قرطبة، د ب ن، 2000م.
 26. كمال الدين عبد الغني، الأمثال في الحديث النبويّ الشريف، ط 1، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 2001م.
 27. كمال عز الدين السيّد، الحديث النبوي من الوجهة البلاغيّة، ط 1، دار اقرأ، د ب ن، 1984م.
 28. المقري الفيومي أحمد بن محمّد بن علي، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير للرافعي، ط 1، مطبعة التّقدّم العلميّة، 1363هـ.
 29. ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف القاهرة، طبعة جديدة، د س ن.
 30. نعيم اليافي، مقدّمة لدراسة الصّور الفنّيّة، ط 1، وزارة الثّقافة، دمشق، 1982م،
 31. نعيم اليافي، أوهاج الحدائث دراسة في القصيدة العربيّة الحديثة، ط 1، إتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1993م.
 32. مكتبة الصغار، أطلس دُول العالم الكبير مغامرات مُشوّقة في الجُغرافيا، بيروت لبنان، د ط، 1999م.